الشروح الأدبية، من ضيق البنية إلى رحابة التداول

د. البشير العوني
دكتوراه في البلاغة وتحليل الخطاب
باحث في كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض، مراكش

الشروح الأدبية تنمي أصالةً إلى مجال النقد التطبيقي، فهي تتوجه بالنظر والتأمّل إلى النصوص الأدبية بغية تنزيل مجموعة من الرؤى والقواعد النظرية المتحمّلة في ذهن الشارح، يتم تنزيلها لأجل استخراج المعنى الكامن في النص وإبراز الجوانب الفنية فيه، وما فتئ العلماء والباحثون ينبّهون على أن هذه الشروح باعتبار هذا الجانب التطبيقي فيها هي مجال خصب لاكتشاف جملة مهمة من القضايا والمسائل والمناهج المنطوية تحت طيات هذا الصنف من التأليف عند العرب، فالشرح الأدبي مجالٌ خصب لتتبع مناهج الدراسة وطبيعتها وصورها التي ظهرت متشكلة فيه، وهو أيضا ميدان لمدارسة القضايا المحورية التي كان الفكر العربي يبني عليها مباشرته للنصوص الأدبية بالشرح والتحليل، شأن انشغاله بالقضايا الصوتية والتركيبية والمعجمية والبلاغية ونحوها، باعتبار ذلك من بين أهمّ مكونات النص الأدبي المشروح، وكذلك لا يقل عن ذلك أهمية مقاربة الشارح للتكامل الكائن بين مختلف هذه المكونات، أو إحالاته على الوقائع التاريخية والسير وغيرها، وكل هذا وغيره مما له من الفضل في الكشف عن جانب خفي من التفكير العربي، ويفتح للبحث في آفاقٍ جديدة من الدرس الأدبي.

إن الشرح الأدبي هو عبارة عن حقل معرفي خام يحوي مجموعة من المواد المعرفية والقضايا العلمية والمناهج المتنوعة التي تثري إلى حدّ كبير العلوم الأدبية واللسانية الحديثة، فهو يمتاز في نفسه بمجموعة من الخصائص التي تضيف إلى حصيلة الدرس الحديث أمورًا معرفية كثيرة، وجدنا الباحثين قد تنبّهوا إليها، يقول بوشتى السكيوي: «المطّلع على محتوى هذه الشروح يدرك منذ الوهلة الأولى أنه أمام مؤلفات أصيلة، فيها الكثير من الفوائد الأدبية والعلمية التي لا توجد في غيرها، وفيها الكثير من الآراء النقدية، والمناقشات الذوقية الخاصة بمؤلفيها، والمتميزة بالدقة العلمية، والأسلوب النقدي التحليلي المتين، وهي سمات تضفي عليها نوعا من الجدة والابتكار»[1].

[1]- السكيوي، بوستى، الشروح الأدبية المغربية وقيمتها العلمية في العصر العلوي الأول: شرح الحماسة لابن زاكور نموذجًا، حوليات كلية اللغة العربية، عدد (4)، سنة (1415هـ= 1994م)، القسم الثاني، ص (254).

سنحاول أن نستجليَ في هذا المقال مجموعة من السّمات التي طُبعت بها الشروح الأدبية في الثقافة العربية، والتي تكشف في أهم مكوناتها عن أنها ليست بنى نصية مغلقة، يقوم الشارح فيها بالاقتصار في الوصول إلى المعنى الثاوي في طيات المتن المشروح على البنيات النصية الداخلية فقط، بمعزل من طَرقِ مستويات أخرى من البحث تُرى ذات أهمية لا يُستطاع الاستغناء عنها من أجل الوصول إلى مقاربة الكمال في استيفاء المعنى المراد من المتن المقصود شرحه، وهو الأمر الذي يريد منشئ النص أن يبلّغه إلى القارئ، وقد لا يريده أحيانا، لكنّ القارئ يكون بالوقوف عليه وتحقيقه على بيّنة من ظروف وملابسات كانت لها ظلال على المعنى الذي قدّمه الكاتب في ظاهر نصه.

يرى المتأمل للأبحاث التي جعلت الشروح الأدبية العربية محط نظر أنها تميل أكثر إلى العناية بالجانب النصي من الشروح، فالدراسات العلمية المعاصرة –خصوصا الأكاديمية منها– قد وصلت إلى مرحلة متقدمة في دراسة مكونات الدرس اللغوي واللساني في الشروح الأدبية، كالمكوّن الصوتي أو التركيبي أو البلاغي وغيره، في حين أن المستويات الأخرى المتصلة بالوظيفة والتداول وما يدور حولهما بقيت غائبة أو قُل بُذل فيها جهدٌ أقل مما تستحقه من الدراسة.

ولذلك فإنه لا يُرى بدٌّ من أن يستنير الشارح بمجموعة من مستويات التحليل التي تضع في عين الاعتبار النصَّ حال كونه واسطة بين المتلقي بما يحمله في ذهنه من اختيارات وتجارب، «وما يتصل بمشاعره ومعارفه وعلاقاته الاجتماعية، وبما كان سائدا في عصره من المذاهب الأدبية والجمالية والتقاليد اللغوية»[2]، وبين السياق والمقام الذي يعبّر عن اللحظة التي ولد فيها النص، بما فيها من مواقف وظروف حافة، وكذلك يأخذ بالاعتبار متلقي النص، وذلك «من خلال معارفه وخبراته بالأعمال الأدبية وبتصوراته عن المقاييس الجمالية»[3].

سار الباحث في هذا العمل آخذا في الدراسة بمنهجِ ذكر النماذج الممثِّلة لكل ظاهرة يقصد تجليتها وبيانها، وكانت هذه الأمثلة والنماذج متوزعة على شروح مختلفة من الشروح الأدبية، دون أن يلتزم الباحث بتتبع أمثلتها أو استقصائها، ولا محاولة إعطائها نسقا تصوريا محددا، لأن القصد في هذا المقال هو الإشارة إلى وجود الظاهرة وقوة حضورها في المجال قيد الدرس، في إشارة من الباحث إلى ترك عملية التتبع والاستقصاء وذكر التفاصيل إلى موضع آخر يناسب هذا الغرض.

[2]– شبلر، علم اللغة والدراسات الأدبية، ترجمة محمد جاد الرب، الدار الفنية للنشر، القاهرة، (1987م)، (ص 110).

[3]– نفسه ص (111).

1 . الشرح الأدبي وساطة بين منشئ النص وقارئه

النص الأدبي في أصله عبارةٌ عن رسالة يوجّهها الأديب إلى القارئ، موقفا إياه على مجوعة من الأفكار والقضايا والمواقف في صورة فنية تقع من خاطره ومخيّلته موقعا، فإذا كان الأمر كذلك فإنه قد يحُول بين الأديب وبين هذه الغاية ما يعيق عملية التواصل هذه، كأن يكون كلام صاحب النص غريبًا من حيث لغته أو غامضًا من حيث تركيبه، أو مغرقًا في إيحائه التخييلي، إلى غير ذلك من المعيقات، لذلك يأتي الشرح للنص الأدبي رافعًا هذا اللبس، وكاشفًا غطاء الضمائر الكامنة في طيات النص، فـ«العلاقة الغريبة الرابطة بين اللغة والمتكلم تجعله إذا تكلم توهّم الإفصاح وقد لا يكون مفصحا، وتجعل القارئ إذا قرأ توهم الفهم وقد لا يكون فاهما، ويزيد أمر المعنى تعقيدًا إذا تعمد المتكلم التفنن في العبارة والخروج عن مألوف المنظوم، فكانت الحاجة إلى التفسير»[4].

إن من أهم خصائص النص الأدبي أن يكون معتمدا على البلاغة والتخييل، وذلك كي يرتفع النص من مستوى الدرجة الصفر من التعبير إلى حد الوصول بعقل القارئ وذائقته إلى أبعد مستويات النص الفنية والجمالية، إلا أن منشئ النص قد يقع له الإيغال في تتبع الصور ورصد الإحالات الذهنية، حتى إنه لربما يقع في الإغراب في المعنى، والبعد عن مستوى فهوم القراء، فيكون النص في حاجة إلى وساطة بين المنشئ والقارئ، ومنه تأتي الحاجة الملحة لدور الشارح، ولهذا كان اهتمام الباحثين في أغلب الدراسات المعاصرة منصبا على الجانب البلاغي في دراستهم للنصوص، لأنها من أهم ما يبرز فيه دور الشارح وقدرته على الوصول إلى فهم مراد صاحب النص من المعنى، يقول عبد القادر المهيري مبِينا عن ذلك: «الكلام في كل اللغات يتضمن من العلامات والقرائن والألفاظ ما ليس ضروريا للمعنى، ولكن هذه العناصر تحميه من الخطأ، وتضمن إبلاغه إلى السامع بطريقة تمكّن من فهمه فهما صحيحا، والكلام الذي يعتمد التعابير البلاغية في حاجة أكثر من غيره إلى التكرار والشرح»[5].

يقف الدارس للشروح الأدبية أولا على جهد هؤلاء الشراح في كسر الحواجز التي تحول بين القراء وبين فهم النص الأدبي على وجهه المراد له، وذلك من خلال تتبع المراحل التي يسير على إثرها الشارح في تفكيك رسائل وشفرات النص، فيضع الدارس اليد على المستويات العلمية والمعرفية التي يركبها الشارح من أجل الكشف عن معنى النص وبلوغ مقاصده.

[4]- الجطلاوي، الهادي، قضايا اللغة في كتب التفسير، دار محمد علي الحامي، صفاقس، (1998م)، ص (140)

[5]- المهيري، عبد القادر، نظرات في التراث اللغوي العربي، ط (1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (1993م)، ص (198 . 199).

إنّ هذا الدور الذي يلعبه الشارح باعتباره وسيطا بين صاحب النص المشروح والقارئ الذي يتلقاه هو ما يؤهله لأن يضع القارئ في الصورة حال كونها كاملة من حيث العناصر الغائبة والكامنة، فيعمل على استدعائها كي يكون القارئ على بينة تامة منها، ويجعلها محكّمة في توجيه مقصدية صاحب النص المشروح من معنى ما يؤدي إليه لفظه.

2 . الشرح الأدبي حافظٌ للنص المشروح

النص الأدبي هو البؤرة التي ينطلق منها الشارح، فبه يعتني وإليه تتجه أنظاره، فلا شك أن القصد الأول عند الشارح هو العناية به، بحيث إنه يسعى من خلال شرحه إلى إيصال المعنى الثاوي في النص على الصورة الأقرب إلى مراد منتجه، وذلك بتوظيف أدوات علمية ومعرفية نصية تُرى قادرة على الكشف عن هذا المراد وتجليته، ويمكن أن نسمي هذا المستوى بالتعامل المباشر في الكشف عن المعنى في النص الأدبي، مقابل تعامل «غير مباشر» يتجاوز فيه الشراح هذا المستوى ليحاولوا أمورا نذكر منها:

أ . العناية ببنية النص

يشارك الشرح الأدبي بشكل مباشر في ضبط ألفاظ النص وصيغه وتراكيبه، لارتباطها الوثيق بالمعنى والدلالة، لأن أيّما تغيّرٍ يمسها فهو مسّ بالمعنى المعبّرة عنه لزومًا، ومثال ذلك قول أبي العباس الشريشي (619هـ) مفصحًا عن عنايته بهذا الجانب، وذلك في مقدمة شرحه لمقامات الحريري حيث يقول: «ولما كانت -أي المقامات الحريرية- من البراعة بهذا المحل الشهير، وسارت مسير النيرين بين مشاهير الجماهير، جعلت الاعتناء بها سهم فهمي، والعكوف عليها حزم عزمي، والدؤوب في ضبط لغاتها وفك مخبآتها أهم همّي، وصيّرت تحفّظها فرض عيني، فبدأت بروايتها عن الشيوخ والثقات، وتقييد ألفاظها عن أعلام هذه الجهات حتى لا أنقل لفظًا إلا عن تحقيق ولا أثبت ضبطًا إلا من طريق، ثم لم أدع كتابًا ألف في شرح ألفاظها وإيضاح أغراضها، وتبيين الإنصاف بين انفصالها واعتراضها إلا وعيته نظرًا، وتحققته معتبرًا ومختبرًا، وتردد في تفهمه وردًا وصدرًا، وعكفت على استيفائه بسيطًا كان أو مختصرًا، حتى أتيت على جميع ما انتهى إليه وسعي ممن فسرها، ثم لم أقتنع بتبيين الدواوين ولا اقتصرت على توقيف التصانيف، حتى لقيت بها صدور الأمصار، فباحثت وناقشت وتأولت وتداولت...»[6].

فهذا النص يعبر عن مسألة أن الشراح كانوا يهتمون بتنوع ألفاظ النص المشروح تبعا لتعدد الروايات التي وصل بها، لما يرتبط به من تحكّم في معناه ودلالته، وينصبون جهدهم في تحقيق هذا الغرض إلى العناية

[6]-الشريشي، شرح مقامات الحريري، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، (1412هـ= 1992م)، (1/ 5 . 6)، بتصرف يسير.

بجمع الشروح التي سُبق بها، فيعمدون إلى تتبعها ومدارستها حتى يستقيم لهم الأخذ منها والاعتماد عليها، ثم يأتي من بعد ذلك مرحلة مدارسة الشرح مع الشيوخ والأقران والطلاب، فيزيد ذلك في تنقيحه وضبطه واختيار اللفظ الأنسب لكل مقام، وهذا كله من الخدمة غير المباشرة للمعنى في الحفاظ على كماله، وإيصاله للقراء على اختلاف أزمانهم وأمكنتهم بالشكل الأقرب للأصل، يقول محمد رضوان الداية عن سمت طائفة من الشراح في ضبط النص الأدبي: «عرفت مجموعة من الشراح الأندلسيين بالضبط في النقل، والدقة في الجمع، والتثبت في الرواية، والعناية بالشروح، وحفظوا لنا مجموعات شعرية ودواوين مفردة أحياناً»[7].

إنّ هذا المستوى من العناية ليدل على أن شارح النص لا بد قبل أن يُخضع النص للدراسة والتحليل، وقبل أن ينزّل بساحته أدواته القرائية، لا بد له من أن يُخضعه لجملة من الإجراءات التي من شأنها أن تضفيَ على النص طابع التحقيق العلمي والضبط المعرفي، وحتى يخرج نصُّه مبنيّاً على قاعدة متينة وصلبة، يستوي بناؤه عليها ثابتا ومتسقا.

ب . العناية بمحيط النص

النص الشارح يولي عنايته بالمحيط التاريخي والنفسي والاجتماعي الذي يلفّ النص ويتشاجر معه، ومثال ذلك ما يتمثل في قول أبي القاسم بن الأفليلي (441هـ): «ورد على سيف الدولة الخبر، آخر ساعة نهار يوم الثلاثاء لستّ خلون من جمادى الأولى، سنة أربع وأربعين وثلاث مئة، بأن الدمستق وجيوش النصرانية قد نزلت ثغر الحدث في يوم الأحد، ونصبت مكايد الحصون عليه، فركب سيف الدولة لوقته نافرا، فأتتهم طلائع بخبر سيف الدولة في إشرافه على ثغر رعبان، فوقعت الصيحة فيهم وظهر الاضطراب، وولّى كل فريق على ودهه[8]، وخرج أهل الحدث فأوقعوا ببعضهم، وأخذوا آلة حربهم فأعدوها في حصنهم، فقال أبو الطيب في ذلك يمدحه:

ذي المِعَالِي فليعلُوَنْ من تَعَالى هكَذا هكَذا وإلاّ فلا لا"[9]

فهذا النص يمثّل لما أوردنا من أن الشارح قد يستعين في شرحه للنص الأدبي بالتعرض لذكر بعض الظروف النفسية كقوله: «فوقعت الصيحة فيهم وظهر الاضطراب»، وكذا التاريخية في قوله: «لست خلون

[7]- الداية، محمد رضوان، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ط (2)، مؤسسة الرسالة، بيروت، (1414هـ= 1993م)، ص (71).

[8]- قال في «لسان العرب»: «استَوده الخَصْمُ: غُلِب وانقاد ومُلِكَ عليه أمرُه»، مادة (و د ه) (13/ 560).

[9]- ابن الأفليلي، شرح شعر المتنبي، دراسة وتحقيق مصطفى عليان، ط (1)، مؤسسة الرسالة، (1418هـ= 1998م)، (2/ 27).

من جمادى الأولى، سنة أربع وأربعين وثلاث مئة»، ثم إن في ذكره لمواقع جغرافية كثغر الحدث ونزول الجيوش فيه ما يوحي بالبعد الجغرافي في النص.

إن الشارح في هذا المثال يحاول أن يسلّط الضوء على مستويين مهمّين في التحليل النصي، أحدهما داخلي، يغوص في العمق النفسي الذي قيل في خضمّه الكلام، حيث إن النص كان تعبيرا عن هذه الحالة النفسية التي تمثل أطارا يلّف النص ويتواشج معه، والمستوى الآخر خارجي، أولى عنايته بالبعد التاريخي والجغرافي الذي يحيط بالنص، لأن كلّ كلام لا بد من أن يستظرفه بعدا الزمان والمكان، وهما عنصران لا يقلان أهمية عن غيرهما، ولا مندوحة من استحضارهما من أجل استكمال الصورة النصية تامة، وهو الأمر الذي كان الشراح على وعي تام به.

ج . العناية بموقف النص

يقصد الباحث بـ«موقف النص» المقام الذي تمّ إنشاء النص في ظرفه، وما يتعلق به من الظلال الممتدة في الكشف عن الأحداث والوقائع التي كانت ظرفا لإنتاج النص الأدبي، وهو ما يطلق عليه عند بعض الباحثين «التداول»، وهي «دلالة عناصر الموقف الذي حدث فيه الكلام، من متكلم وسامع ونص ما قيل، ومن أثر تركه في بيئة الاتصال ونحو ذلك، كل أولئك يعين على فهم دلالة النص ويتحتم الاعتداد به عند محاولة فهم ما قيل»[10]، وذلك ما يعبّر عنه على سبيل المثال نصٌّ يقول فيه أبو عبيدة (209هـ): «... فورد جرير على أهله ذات يوم يحمل إليهم اللبن، فإذا هو بجماعة، فسأل ما هذا؟ فقالوا: هذا غسان يُنشد بنا، فقال جرير: احملوني على بعير، فجاؤوه بقَعود فركبه، وأقبل حتى أشرف على غسان والجماعة فرجز بهم، وهو أول شعر قاله:

لا تحسبنّي عن سَليطٍ غافلا إن تَعشُ ليلا بسليطٍ نازلاً

لا تلقَ قِرانا ولا صواهلاً ولا قرىً للنازلينَ عاجلاً[11].

فنرى أن الشارح قد يسوق في شرحه للنص المقامَ الذي ورد فيه إنتاجه، وذلك حينما يتقمص الشارح دور القاص الذي يحاول أن يصف لمستمعه الهيئة والفضاء الذي احتوى النص الأدبي هيئة وصوتًا ومكانًا

[10]- حسان، تمام، اجتهادات لغوية، ط (1)، عالم الكتب، القاهرة، (1428هـ= 2007م)، ص (252 . 253).

[11]- أبو عبيدة، شرح نقائض جرير والفرزدق، تحقيق وتقديم محمد إبراهيم حور ووليد محمود خالص، ط (1)، المجمع الثقافي للطباعة والنشر، الإمارات العربية المتحدة، (1994م)، (1/ 159)، انتبه لهذا النص أحمد الودرني في كتابه الذي سيذكر بعد.

وزمانًا وشخوصًا، لأن «الشعر عندهم إنشاد على نحوٍ ما وفي فضاء بعينه، حتى بات ذلك لديهم من أبرز المحافل في حياتهم»[12].

إن هذا الجانب «غير المباشر» في تحصيل المعنى المضمّن في النص الشارح، والذي يشارك بشكل كبير في الوقوف على حقيقته في النص الأدبي غالبًا ما يعبّر عنه في مطلع كل قطعة من النص المشروح، حال كون هذه القطعة –نثرية أو شعرية– مستقلة من حيث الموقف والسياق الثاوية فيه، فـ«المقام الأصيل من الممكن بل من الضروري أن يعاد بناؤه في صورة وصف له مكتوب حتى يمكن للنص أن يفهم على وجهه الصحيح... وكلما كان وصف المقام أكثر تفصيلاً كان المعنى الدلالي الذي نريد الوصول إليه أكثر وضوحًا»[13].

إن دراسة الشرح الأدبي تكشف إلى حدّ ما عن طبيعة هذا الجهد المبذول من لدن الشارح، وتمد الباحثين بما يكتنف عمل الشرح من المراحل العلمية التي يسير عليها الشارح في عمله، من حيث الوقوف على مدى استفادته مما وصله من القرائن الحافة بإنشاء النص الأدبي وقدرته على استثمارها في مقاربة المعنى الذي هو محور النص، وذلك أن «أهميّة البعد التداولي في النص الشعري تعد حاسمة في فهم القصيدة، فالتنبيه إلى تداوليات النص هو تنبيه إلى المحددات السياقية للمعنى في لغة النص وفي خصوصيات الفعل والدور والسياق والاستدلال»[14].

3 . الشرح الأدبي صورة عن ثقافة الشارح

إذا كانت المستويات التي مرّت تركّز على العمل الذي يقوم به الشارح في توجيه النص المقصود، فإننا هنا سنرى أن الشارح نفسَه باعتباره القارئ الأوّل للعمل الأدبي لا بد من أن يكون أيضا عنصرا فاعلا في المنظومة التواصلية الحاصلة بين صاحب النص الأصلي والقارئ، ولهذا من المشروع أن يكون كلام الشارح أيضا محطّا للنظر من خلال ما يوحي به من خلفيات موجهة للعمل الذي يُناط به القيام به، من حيث ثقافته المؤهِّلة ومحيطه الذي هو جزء من كيانه وذاته.

---

[12]– الودرني، أحمد، أصول النظرية النقدية القديمة من خلال قضية اللفظ والمعنى في خطاب التفسير، ط (1)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، (2006م)، ص (56).

[13]– حسان، تمام، اللغة العربية مبناها ومعناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، (1994م)، ص (346).

[14]– هنوش، عبد الجليل، التأسيس اللغوي للبلاغة العربية، قراءة في الجذور، ط (1)، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمّان، (1437هـ= 2016م) ص (73).

إن الشارح لا بدّ له من أن يكون على ثقافة تؤهله إيلاءَ النص الأدبي ما يستحق من الفهم، وذلك أنه يجتهد في أن تتوافر لديه ترسانة من العلوم العقلية والنقلية التي تخوّله أن يوجه كلام صاحب النص، بحيث يحقّ له أن يقول إنه يريد بكلامه كذا ولا يريد به كذا، ولئن كان هذا الأمر في نصوص الوحي أمرا لا يتساهل فيه، إلا أنه في النص الأدبية لا يقل أهمية كذلك، لأنه قد يحمّل النص ما لا يتحمّله من المعنى، وقد يوجهه إلى غير ما وجهه به صاحبه، يقول محمد مندور: «لا يحسبنّ أحد أن الاتجاه التفسيري في النقد أقل مشقة من الاتجاه التقييمي والتوجيهي، ذلك لأنه إذا كان التقييم والتوجيه يحتاجان إلى التمتع بحاسة جمالية مرهفة أو إلى الإيمان بقيم إنسانية واجتماعية معينة، فإن الاتجاه التفسيري يحتاج إلى ثقافة وخبرة بالغة»[15].

بناءً على هذا فإن دراسة الشروح الأدبية تتيح إمكانية الوقوف ثم التعبير عن مستوى الثقافة العلمية والمعرفية التي يتوافر عليها الشارح في المجالات المختلفة، وتعكس أيضا كيفية توظيفها من طرفه في مقاربة النص الأدبي المشروح، واستثماره للأدوات والآليات التي تعين على سبر أغواره واختراق حجبه، ثم إنها تكشف أيضا عن طرق تفاعل مستويات تلك الثقافة أثناء مدارسة النص وما توفره له من خدمة، ولا ينبغي أن نُهمل الإشارة إلى أن دراسة الشرح الأدبي تعين أيضا على إمكانية الكشف عن تأثر الشرح بما يميل إليه اهتمام الشارح من العلوم والمعارف، وتميط اللثام عن الأعمال التي تمت الاستفادة منها من قِبله، وكذا الأعلام الذين تمت الاستعانة بهم في صنعه ووضع أسسه ولبناته.

إن الشرح الأدبي باعتباره نصّاً مبتدَعا هو كالجزء من ذات المؤلف، يتطبع بطبائعه ويعكس صورة نفسيته، فلا غرو أن يبدوَ في غضون شرحه جانبٌ من الثقافة والعلم يغلب على الآخر، ومسائل تبرز فيها حنكته وتمرسه دون أخرى، ولذلك نجد ثلةً من الباحثين المعاصرين ممن قد خصّصوا جزءًا من بحوثهم في الكشف عن الجوانب التي تغلب على الشارح في دراسته للنصوص وشرحها، ومن أبرز هؤلاء فخر الدين قباوة، حيث نظر إلى الشروح الأدبية من خلال اهتمامات الشراح بطرفٍ يغلب عليهم من الثقافة والعلم قصدا أو بغير قصد، يقول: «فنحن نجد من الشارحين من تطغى على مصنفاته واحدة أو اثنان أو ثلاث من مسائل الشرح، اللغوية والنحوية والتاريخية والبلاغية والنقدية، فيندفع وراءها، يطاردها من كل صوب، مخلّفا سائر جوانب مقتضيات الشرح، لا يعيرها سوى اهتمام جانبي عابر، وبذلك يتميز صنيعه بما يشبه أن يكون

[15]– مندور، محمد، النقد والنقاد المعاصرون، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (1997م)، ص (209).

اتجاها»[16]، ولا شك أن عناية الباحثين المعاصرين في تخصصهم في دراسة جانب أو أكثر من الجوانب العلمية والثقافية التي يميل إليها الشارح من خلال ما صنّفه في الشروح الأدبية خصوصًا، ستكشف عن طائفة صالحة من الاجتهادات والآراء التي تقوي هذا الطرح النظري، وتدعم عملية الكشف عن مخبآته.

4 . شرح النص الأدبي صورة عن بيئة الشارح

الإنسان ابن بيئته، وكل أمر يصدر عنه فهو مرآة لمحيطه الذي يعيش فيه، وأهم ما يعكس ذلك نتاجه العلمي والأدبي، وهذا أمر لا يحتاج إلى بيان لشهرته بين الباحثين، القدامى منهم والمعاصرين، وذلك «لأن لكل قطعة فنية إطارًا اجتماعيًا أو نفسيًا هو البيئة المناسبة التي توحي بها، وتعمل لأجل تكييفها وتوجيهها، فلا يستطيع السامع أو الدارس أن يتبين دقائق تلك القطعة إذا لم يطّلع على إطارها الاجتماعي أو النفسي الذي يوضح غامضها وييسر استيعابها»[17]، فهذه العلاقة المتبادلة بين المبدع والبيئة تجعل الحكم على المحيط الثقافي يتحصل بدراسة ثقافة أعلامه وخصائص أدبِهم وشعرِهم وباقي مختلف نتاجهم الفكري، وإذا كان الأمر كذلك فإن شروح الأدب باعتبارها نصوصًا استثمر أصحابها فيها ثقافتهم وعلومهم على اختلاف ألوانها وتشكلاتها، فإنها –مع اختلاف طبيعتها من شارح لآخر، أو من مرحلة خاصة من التأليف لأخرى عند شارح واحد– تتحد في أنها تعبّر في جملتها عن مجمل اهتمامات ومشاغل العصر الثقافية والعلمية من مناهج واتجاهات وأذواق وقضايا ومسائل وآراء...، يقول عبد الجواد السقاط متحدثا عن الشروح الأدبية: «إنها تعتبر مصدرا مهمّا يطّلع منه الباحث على مسيرة النقد الأدبي بهذه الربوع، سواء كان هذا النقد انطباعيًا أو تطبيقًا أو كان جملة من المواقف والآراء النقدية التي تسعى إلى وضع بعض من القواعد والأسس»[18].

إن العلاقة بين الشارح وبين البيئة المحيطة به هي علاقة أخذ وعطاء، فالشارح في مراحل تحصيله العلمي والثقافي يتأثر بها، ثم إنه في مرحلة عطائه يجعل من إنتاجه معطًى قابلا لأن يُستثمر من لدن من يأتي بعده من الباحثين الذين يرصدون طبيعة العصر الذي عاش في كنفه الشارح، لا سيما في جانبه الفكري، يؤكد رضوان الداية هذا الجانب متحدثا عن شروح الأندلسيين بقوله إنه «يفيد في تبيين معالم الذوق النقدي

---

[16]– قباوة، فخر الدين، منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات، ط (2)، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، (1418هـ= 1997م)، ص (90).

[17]– بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي (1/ 141)، نقلا عن: قباوة، فخر الدين، منهج التبريزي في شروحه ص (91).

[18]– السقاط، عبد الجواد، مقال: مدخل إلى الشروح الشعرية في الأدب المغربي . (2) . ، دعوة الحق، عدد (289)، رمضان . شوال (1412هـ) بتصرف.

الأندلسي، ويكشف عن بعض اتجاهات الدارسين هناك، واهتماماتهم الأدبية واللغوية، ويعرض بين الفينة والفينة إلى قضايا تمس موضوع النقد مسّا مباشرا، وهي إلى ذلك تكشف عن بعض مقاييس نقدية وبلاغية... لم تترك لنا كتب الأدب عامة ولا ما تبقى من كتب النقد عنها شيئا واضحا»[19].

تكتسب الشروح الأدبية مجموعة من الخصائص التي تجعل منها مادة خصبة في الدراسات العربية، وذلك أنها تجعل الباحث يقف على مادة علمية تجيب عن مجموعة من الإشكالات المعرفية والمنهجية التي يتردد استشكالها على ألسنة الدارسين المعاصرين، يقول الهادي الجطلاوي: «... ونأمل أن نقع في تلك الشروح على بعض الخصائص التي من شأنها أن تثري البحوث الأسلوبية المعاصرة، وتنير السبيل إلى بعض المناهج العلمية المجدية في ممارسة الأثر الأدبي، على أساس أن التجربة العربية في شرح النص قديمة وطويلة»[20].

فالمطّلع على مدونة الشروح الأدبية في الثقافة العربية يجد الأمثلة الشاهدة على صحة ما تم الكشف عنه –تمثيلا، لا تتبعا واستيفاءً– من أن أصحاب هذه الشروح كانوا على وعي تام بأن النص الأدبي لا بد من أن يُنظر إليه في ضوء مجموعة من المعطيات التي تحفّ به، تجمع بينها صلاة وروابط متينة وعميقة، وهذه المعطيات تدور تارة حول المؤلِّف باعتباره مبدِعا للنص في ظروف نفسية واجتماعية مؤثِّرة، وفي موقف أو سياق نصيٍّ فاعل ومحكَّم، ثم هو خاضع أيضا لسلطة قارئٍ أو قراءٍ لهم تصورات عن مقاييس الجمال والفنية في النص، ولهم خبرات متراكمة في قراءة النصوص ونقدها.

المصادر والمراجع

1. ابن الأفليلي، شرح شعر المتنبي، دراسة وتحقيق مصطفى عليان، ط (1)، مؤسسة الرسالة، (1418هـ= 1998م)، (2/ 27).
2. بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي (1/ 141)، نقلا عن: قباوة، فخر الدين، منهج التبريزي في شروحه ص (91).
3. الجطلاوي، الهادي، قضايا اللغة في كتب التفسير، دار محمد علي الحامي، صفاقس، (1998م)، ص (140).
4. الجطلاوي، الهادي، مقال: خصائص الشروح العربية على ديوان أبي تمام، مجلة فصول، جزء (1)، مجلد (6)، عدد (1)، (1985م)، ص (137).
5. حسان، تمام، اجتهادات لغوية، ط (1)، عالم الكتب، القاهرة، (1428هـ= 2007م)، ص (252 . 253).

[19]– الداية، رضوان، تاريخ النقد الأدبي ص (69).

[20]– الجطلاوي، الهادي، مقال: خصائص الشروح العربية على ديوان أبي تمام، مجلة فصول، جزء (1)، مجلد (6)، عدد (1)، (1985م)، ص (137).

6. حسان، تمام، اللغة العربية مبناها ومعناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، (1994م)، ص (346).
7. الداية، محمد رضوان، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ط (2)، مؤسسة الرسالة، بيروت، (1414هـ= 1993م)، ص (71).
8. السقاط، عبد الجواد، مقال: مدخل إلى الشروح الشعرية في الأدب المغربي . (2) . ، دعوة الحق، عدد (289)، رمضان . شوال (1412هـ) بتصرف.
9. السكيوي، بوستى، الشروح الأدبية المغربية وقيمتها العلمية في العصر العلوي الأول: شرح الحماسة لابن زاكور نموذجًا، حوليات كلية اللغة العربية، عدد (4)، سنة (1415هـ= 1994م)، القسم الثاني، ص (254).
10. شبلنر، علم اللغة والدراسات الأدبية، ترجمة محمد جاد الرب، الدار الفنية للنشر، القاهرة، (1987م)، (ص 110).
11. الشريشي، شرح مقامات الحريري، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، (1412هـ= 1992م)، (1/ 5 . 6)، بتصرف يسير.
12. أبو عبيدة، شرح نقائض جرير والفرزدق، تحقيق وتقديم محمد إبراهيم حور ووليد محمود خالص، ط (1)، المجمع الثقافي للطباعة والنشر، الإمارات العربية المتحدة، (1994م)، (1/ 159)، انتبه لهذا النص أحمد الودرني في كتابه الذي سيذكر بعد.
13. قباوة، فخر الدين، منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات، ط (2)، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، (1418هـ= 1997م)، ص (90).
14. مندور، محمد، النقد والنقاد المعاصرون، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (1997م)، ص (209).
15. المهيري، عبد القادر، نظرات في التراث اللغوي العربي، ط (1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (1993م)، ص (198 . 199).
16. هنوش، عبد الجليل، التأسيس اللغوي للبلاغة العربية، قراءة في الجذور، ط (1)، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمّان، (1437هـ= 2016م) ص (73).
17. الودرني، أحمد، أصول النظرية النقدية القديمة من خلال قضية اللفظ والمعنى في خطاب التفسير، ط (1)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، (2006م)، ص (56).